الأسلوب بين القدامى والمحدثين

أ. عبدالقادر زين ج الجلفة

لم يعن العرب بشأن من شؤون حياتهم عنايتهم بفن القول في نثرهم وشعرهم ، فالبيان فيهم طبع وسليقة ، به يتمادحون وعليه يعولون في تسليم مقاليد التقديم والرفعة لمن بزهم في حلبة ميدانه وسبقهم بجواد مِقْوَلِه بعد أن أرخى عنانه ، لذا أولوا سبل إجادة القول وحسن سبكه وترتيبه من ضروب العناية ماهداهم إليه تصورهم لمعناه وما قادهم فهمهم لحد غايته ومنتهاه ، وكانوا في أول أمرهم يحشدون التأييد لإظهار معجزة القرآن الكريم وإظهار مباينته لكلام المخلوقين ، بعد أن عجز الشعراء والخطباء عن مجاراة فصاحته والسير في ركاب بلاغته ، فجمعوا معايير الفصاحة والبلاغة من منثور الكلام ومنظومه وأخذ التأليف في علوم البلاغة تتوطد أركانه ويُشيّد بنياته.

والمتأمل في الأسلوب يجد أنه أعلق الأشياء بصاحبه وأدلها على شخصيته ، لذا يلجأ الكثير من المحللين في استقراء النفسيات والتعرف على الشخصيات إلى تحليل كلام أصحابها ، فالخواطر والخلجات إذا جاشت في النفس وحاكت في الصدر لاتجد متنفسا ومخرجا إلا اللسان فتظهر في فلتاته وتنجلي في كبواته .

وللعرب نظرات ثاقبة في الأساليب وتحليل بنياتها وتراكيبها سبقت مقولة بيفون* وأسلوبية شارل بالي ومن جاؤوا بعده بقرون طويلة .

وفي هذه المقالة أردت أن أعرض لهذه النظرات التراثية باستعراض بعض الومضات من تراثنا البلاغي النقدي في هذا الشأن وإن كان الأمر يحتاج إلى العشرات والمئات من البحوث والمقالات لتجليته ، كماعملت على أن لا أخلي البحث من بعض أقوال المحدثين في نظرتهم للأسلوب من علماء الغرب أو العرب .

الأسلوب عند القدامى

قبل البدء بتعريف الأسلوب عند القدامى من النقاد والبلاغيين العرب وما يحمله هذا المصطلح من دلالات عندهم ، أرى لزاما تحديد المعنى اللغوي على عادة القدامى أنفسهم .

فالأسلوب تناوله ابن منظور شارحا لمعناه بقوله : « يقال للسطر من النخيل أسلوب ، وكل طريق ممهد فهو أسلوب ، قال والأسلوب الطريق والوجه والمذهب ، يقال أنتم في أسلوب سوء ، ويُجمَع على أساليب ، والأسلوب الطريق تأخذ فيه ، والأُسلوب بالضم الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه ، وإنَّ أنفه لفي أسلوب إذا كان متكبرا.»[1]

---

* سيعرض البحث لهذه المقولة لاحقا

[1]- ابن منظور – لسان العرب – دار صادر ، بيروت – ط : 1 / 2000 – ج : 07 – ص : 225

ولم يزدْ الزبيدي في " تاجه" [1] على ما جاء في اللسان ، بينما اقتصر الجوهري في "الصحاح" في مادة (سلب)على:«الأُسلوب بالضم الفن، يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي في فنون منه.»[2]

ووردت مادة (سلب) في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [سورة الحج /73] قال الراغب الأصفهاني في شرح الآية :« السلب نزع الشيء عن الغير على القهر ... والأساليب الفنون المختلفة.»[3]

أما في الشعر العربي فأول الشعراء الذين وردت لفظة أسلوب في شعرهم هو الأعشى حين يقول:

أُنُوفُهُم مِالْفَخْرِ فِي أُسْلُوبِ * وشَعَرُ الأَسْتَاهِ بالجَبُوبِ** [4]

يصف قوما بالكبر وهم أخساء.

ويصف كذلك أبو نواس طعنة نجلاء في طردياته فيقول :

جَيَاشَةً تَذْهَبُ فِي أُسْلُوبِ * بِصَائِكٍ مِن علقٍ صَبِيبِ** [5]

أما البحتري فيقول :

إذَا بَدَأَت لَنَا أُسْلُوبَ شَوْق * رَأَيْنا في التصَابي ما تُرينا**[6]

وكل هؤلاء الشعراء ما عنوا سوى الجهة والطريق والمذهب ، وإنما أشرتُ إلى المعنى المعجمي قبل المصطلحي لِمَا بينهما من تواشج فـ « بين القاموس العام في اللغة والرصيد الاصطلاحي الخاص بكل علم ، ينبثق توازن متكافئ يأخذ فيه كل طرف من الآخر بما لا يُدخل الضيم على دلالات اللغة ووظيفتها البلاغية، ولا على مفاهيم المعارف في وظائفها النوعية من حيث هي خطاب علمي.» [7]

أما الأسلوب كتصرف في إمكانات اللغة بما تتيحه من اختيارات ، وتقبله من تراكيب ، فالتراث العربي النقدي البلاغي وحتى اللغوي منه قدم مادة غنية ، شكلت منطلقا هاما للبحث الأسلوبي والتنظير له، وما يثيره التفكير الأسلوبي من قضايا ومشكلات ، فكان سيبويه(180هـ) سباقا في هذا المضمار بمؤلفه "الكتاب" الذي وإنْ كان كتابا نحويا ، إلا

---

[1]- الزبيدي – تاج العروس – دار الفكر ، بيروت – دط / 1994 – ج : 02 – ص : 82

[2]- الجوهري – الصحاح – دار العلم للملايين ، بيروت – ط : 3 / 1984 – ج:01 – ص : 149

[3]- الأصفهاني ، الراغب – مفردات القرآن الكريم – دار القلم ، دمشق – ط : 2 / 1997 – ص : 419

[4]- الأعشى – الديوان – دار صادر ، بيروت – ط : 3 / 2003 – ص : 28

5- أبونواس– الديوان– دار الكتاب العربي ، بيروت – دط – دت – ص : 667

6- البحتري – الديوان – دار المعارف ، القاهرة – ط : 2 / 1977 – ج : 4 – ص : 2208

7- المسدي ، عبد السلام – المصطلح النقدي – مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله ، تونس – دط / 1994 – ص : 14

أنه لايخلو من بعض الإشارات والظواهر، التي تعد من صميم البحث الأسلوبي ، فمن ذلك قوله في الحذف:«اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك ، ويحذفون ويعوضون ، ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا.»[1] وتتبع هذا في "الكتاب" يطول، وتتضح الصورة أكثر عند ثلة من لغويي القرنين الثاني والثالث للهجرة انبرت للدفاع عن لغة القرآن الكريم ضد مطاعن المشككين في عربيته ، أوالمساوين له بالشعر من جهة الإعجاز البياني، فكان لبحوثهم أهمية كبيرة في إثراء مفهوم الأسلوب في الشعر خاصة وجلاء أشكاله ، رغم أن هذا لم يكن هدفهم ولا دافعهم في التأليف،غيرأنهاجاءت عرضا واستطرادا، ويقف على رأس هؤلاء الفراء(207ه) والأخفش(215ه) وأبوعبيدة مَعْمَر بن المثنَّى (209ه) ، رغم أن مفهوم الأسلوب لم يتبلور عندهم بمعالم محددة كما أضحى عند من جاؤوا بعدهم أمثال الجاحظ (215ه) الذي وإن لم يورد في مؤلفاته لفظة (أسلوب) غير أنه أثار في كتابه "البيان والتبيين" فكرة تباين مستويات الأداء اللغوي ومثَّلها بتباين مستويات طبقات الناس ، فكل طبقة تتخير من الألفاظ ما يناسب المعاني التي ترمي إليها في محاوراتها،فيكون للمعنى الشريف؛الجزلُ من الألفاظ والعكس بالعكس، وفي هذا يقول الجاحظ : « وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والخفيف والثقيل وكله عربي، بكلٍ قد تكلموا ، وبكلٍ قد تمادحوا وتعايبوا.»[2]

وكان لنظرية البيان التي جاء بها الجاحظ « أهمية عظيمة في من جاء بعده ،خاصة إدخاله لمصطلح النظم في دراسة القرآن الكريم ،إذ لاقى من الاهتمام ما لم يلاقه غيره من المصطلحات واستخدم على قدر كبير من الرضى فيما بعد.» [3]

هذه الأهمية جلَّاها حمادي صمود في كتابه " التفكير البلاغي عند العرب " إذْ بناه على تأثير هذه النظرية في من جاء بعد الجاحظ إلى القرن السادس ، وفي هذا الشأن يقول:«إن جملة من العوامل الموضوعية حملتنا على اعتبار الجاحظ مرحلة هامة وحاسمة في تاريخ البلاغة العربية، فمؤلفاته تعتبر أقدم آثار وصلتنا لها علاقة بأفانين التعبير، وهو كذلك صاحب أول تأليف يخصص لدراسة الكلام البليغ وضوابط المستوى الفني من اللغة.»[4]

وإذا استعرضنا جهود كوكبة من البلاغيين الذين عمَروا الفترة مابين الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني (471ه) أمثال : ابن قتيبة (276ه) والآمدي (370ه) وابن جني (392ه) والباقلاني (403ه) وابن رشيق (463ه) ، فإن ابن طباطبا العلوي (370ه) يستوقفنا بتعريفه لمفهوم الأسلوب دون أن يشير إليه بالاسم ، فيقول في تعريفه بعد أن تنحى جانبا في الخصومة التي كانت قائمة بين أنصار المعنى وأنصار اللفظ :« فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مَخَضَ• المعنى الذي

1. سيبويه – الكتاب – دار الجيل ، بيروت – ط : 01 – دت – ج : 1 – ص : 24

2. الجاحظ _ البيان والتبيين – مكتبة الخانجي ، القاهرة – ط : 05 / 1985 – ج :1 – ص : 144

3. عبابنة ، سامي محمد – التفكير الأسلوبي – عالم الكتب الحديث ،عمان (الأردن) – ط:1 /2007– ص : 33

4. صمود ، حمادي – التفكير البلاغي عند العرب – دار الكتاب الجديد ، بيروت – ط :3 / 2010 – ص : 15

• في طبعة دار الكتب العلمية (مخَّض) بالتشديد .

يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعدّ له ما يُلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته ، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشّعر، وترتيب لفنون القول فيه ؛ بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله، فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعاً لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونَتَجَتْه فكرته، فيستقصي انتقاده، ويَرُمُّ ما وَهَى منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية ، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه، وطلب لمعناه قافية تشاكله، ويكون كالنساج الحاذق الذي يُفَوِّف وَشْيَه بأحسن التفويف ويسدِّيه ويُنِيره ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه، وكالنقاش الرقيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العَيان، وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق ، ولا يشين عقوده ، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها ، وكذلك الشاعر...» [1] وهذا النقل الذي ارتأيت إثباته على طوله يدل على البراعة التي وصل اليها الأوائل في حد المفاهيم وتقريبها الى الأفهام وإن أخذت مسميات مختلفة ، إذْ أن القدماء لم يكن اهتمامهم منصبا على جمع مدونة مصطلحات فـ :« الجاحظ على كثرة ما كتب في البلاغة لم يكن يُعنى بوضع المصطلحات ، أو صياغة التعريفات والحدود ، وإنما كان أديبا بليغا بطبعه وعقله وذوقه ، فكان يقف أمام النصوص ليشرحها ، أويعلق عليها ، أويدل على ما فيها من مواطن الجمال أوحسن البيان.» [2] ويؤكد هذه الحقيقة شوقي ضيف بقوله : « نرى من كل ما قدمناه أن الجاحظ قد ألم في كتابه بالصور البيانية المختلفة ، وبكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يسق ذلك في تعريفات وتحديدات ، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية ، قلما عني بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التي يقررها.» [3]

أما طروحات عبد القاهر الجرجاني فهي من أعمق النظرات إلى الأسلوب في التراث البلاغي ولا يضاهيها في تاريخ البلاغة الطويل سوى ما جاء به القرطاجني(684هـ) من بعده كما سنرى فيما بعد ، فالجرجاني جاء بفكرة المساواة بين الأسلوب والنظم وجعل قيام أَوَدِه بتوخي معاني النحو في نظريته الشهيرة التي لخصها بقوله : «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها .» [4] فالنحو أساس النظم والإعراب مفتاح المستغلق من المعنى

1ـ ابن طباطبا ـ عيار الشعر – دار العلوم ، الرياض(السعودية)– ط : 1 / 1985 – ص : 07 – 08

2ـ المبارك ، مازن – الموجز في تاريخ البلاغة – دار الفكر ، دمشق – ط : 6 / 2006 – ص : 58 – 59

3ـ ضيف ، شوقي – البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف ، القاهرة – ط : 8 / 1990 – ص : 56

4ـ الجرجاني – دلائل الإعجاز (تحقيق : محمود شاكر) – دار المدني ، القاهرة – ط : 2 / 1992 – ص : 81

فهو«المعيار الذي لا يتبيَّن نقصان كلام من رجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه ، ولا ينكرذلك إلا من ينكر حسه ، وإلا من غالط في الحقائق نفسه.»[1]

ولم يكتف الجرجاني بوضع المفهوم كما فعل من سبقوه ، بل عمد إلى "الأسلوب" فجعله مصطلحا يقابله حد ، وإن جاء عرضا في كلامه في سياق الحديث عن الاحتذاء فقال:« واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ، أن يبتدئ الشاعر في معنىً له وغرضٍ أسلوبا ـ **والأسلوب الضرب والنظم والطريقة فيه** ـ فيعمدَ شاعرٌ آخر إلى ذلك الأسلوب ؛ فيجئ به في شعره ، فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها ، فيقال قد احتذى على مثاله.»[2]

« فالأسلوب لدى عبد القاهر مصطلح من المصطلحات النقدية القارة ، لذلك فهو يعرفه ويحدده ، وهذا ما لم نلحظه عند من سبقه .»[3]

أما السَكّاكي (626هـ) فقد أطلق مصطلح " الأسلوب الحكيم " ليجعله فنا بلاغيا عرَّفه البلاغيون الذين تلقفوه منه بقولهم :«هو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه ، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله ، وإما بحمل كلام المتكلم على غير ما كان يقصد ويريد.»[4]

أما حازم القرطاجني فهو على العكس من ذلك ، إذْ أدرك قيمة المصطلح وأثره على المتلقي فاستغله في كتابه" منهاج البلغاء وسراج الأدباء " وتعرض لقضايا تتعلق بالأسلوب لم يسبقه إليها غيره ، من ذلك قوله – في مطلب (معلم دال على طرق العلم بكيفية الاستمرار في الأساليب والاطراد عليها ومايحسن اعتماده فيها) – :« لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد ومسائل منها تقتنى كجهة وصف المحبوب وجهة وصف الخيال وجهة وصف الطلول وجهة وصف يوم النوى وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض ، وبكيفية الاطراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب، وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ ، لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة جهة من جهات غرض القول وكيفية الاطراد من أوصاف جهة إلى جهة، فكان بمنزلة النظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة الحاصلة عن كيفية

1. الجرجاني – المرجع نفسه – ص :28

2. الجرجاني – المرجع نفسه – ص : 468–469

3. عبابنة ، سامي محمد– التفكير الأسلوبي – ص : 39

4. الهاشمي ، أحمد– جواهر البلاغة – مكتبة المعارف ، بيروت – ط : 2 / 2004 – ص : 416

النقلة من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب ، فالأسلوب هيأة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيأة تحصل عن التأليفات اللفظية.»[1]

فالقرطاجني ربط الأسلوب بصورة إخراج الكلام لا بأغراضه ، وهذا يوحي بأنه يجعل الأسلوب أعلق ببنية النص ، وهذا التصور النسقي هو قطب الرحى في الدراسات الأسلوبية الحديثة وهو ماجعل الطربلسي يعتبر«ما قدمه حازم قمة ما وصل إليه تفكير العرب بالأسلوب قديما.» [2]

وزاد مصطلح الأسلوب استقرارا مع ابن خلدون إذ يراه :«المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يُرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية، وإنما ترجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال، ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان، فيرصها فيه رصاً، كما يفعله البناء في القالب أوالنساج في المنوال، حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام، ويقعَ على الصورة الصحيحة باعتبار مَلَكة اللسان العربي فيه ، فإن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة.»[3] ، فأسند الأسلوب إلى الذهن مقتربا في تحديده من التجريد جاعلا إدراك هذه العلوم لا تجعل من متقنها شاعرا ، كما يشاهدأن كثيرا من الشعراء لم يتضلعوا من هذه العلوم ، بل العبرة إذا أريد التأسيس لمشروع شاعر مفلق ، أن يجعل يمتلك الملكة بالدربة والمران ، ويستوفي هذه العلوم قراءة وفهما وحفظا، وهو ما سماه القدرة اللغوية وعرف فيما بعد في اللسانيات الحديثة بالكفاءة اللغوية .

بعد هذا العرض للأسلوب في تراثنا البلاغي النقدي مصطلحا ومفهوما ، نخلُص إلى أن الأسلوب تمثل للأوائل كمفهوم قبل أن يُحدَّ كمصطلح ، وإن سُمي بتسميات مختلفة عند البعض منهم ، وأن دخوله كمصطلح محدد المعالم لم يُعرف سوى في مؤلفات الجرجاني والقرطاجني وابن خلدون وإن اختلفت نظرة كل واحد منهم ، إلا أنها تُجمع على أن الأسلوب توفيق بين أطراف الكلام ؛ سواء بتوخي معاني النحو في التراكيب ، أوبنسج هذه التراكيب على منوال صورة ذهنية تهيئها الملَكة ويصقلها المِران والدُربة .

---

[1]ـ القرطاجني ، حازم – منهاج البلغاء وسراج الأدباء (تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة) – دار الغرب الإسلامي ، بيروت – ط : 2 / 1981 – ص : 363-364

[2] ـ الطرابلسي ، محمد الهادي – مظاهر التفكير في الأسلوب عند العرب (نقلا عن عبابنة ، سامي محمد – التفكير الأسلوبي) – ص : 47

3 ـ ابن خلدون – المقدمة – دار الكتب العلمية ، بيروت – ط : 1 / 2003 – ص: 468

هذه النظرة الثاقبة للأسلوب وقف بإزائها النقاد العرب المحدثون بين مُكبرٍ لها ، مُعلٍ من شأن روادها، جاعلا ما جاء به الغرب في هذا المضمارمن باب (بضاعتنا ردت إلينا) ، وبين منتقص من هذه الجهود لأنها لا ترقى الى الشمول التراكمي الذي وصلته نظرية الأسلوب بحكم أخذ اللاحق عن السابق و استدراكه عليه ، ومن الفريق الأول أحمد بدوي الذي يرى أن الأسلوب « عند نقاد العرب ـ **كما هو عندنا اليوم** ـ الطريقة الخاصة التي يصوغ فيها الكاتب أفكاره ويبين بها عما يجول في نفسه من العواطف والانفعالات.»[1]

وعزز هذا الرأي يوسف بكار بقوله :« عرَّف النقاد العرب الأسلوب تعريفا لا يختلف عن التعريف المعاصر في شيء فقالوا : إنه الضرب من النظم والطريقة فيه وأنه المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه.»[2]

أما كمال أبو ديب فيُشيد بما وصل إليه التراث العربي في نظرته للأسلوب ، ويجعلها أكثر شمولا ودقة من النظرة الأوروبية القديمة منذ أرسطو إلى القرن التاسع عشر، ويدعو إلى تأسيس نظرية نقدية عربية انطلاقا من هذا الإرث النقدي البلاغي ، فيقول في معرض عقده لمقارنة بين النظرتين: الأوروبية والعربية للأسلوب والصورة « ومن الشيق أن التراث العربي يخرج على هذه النظرة للأسلوب والصورة في نقاط عديدة من تطوره ، ويبلغ الخروج ذروته في تصور عبد القاهر الجرجاني.»[3]

ولايبتعد كثيرا عن هذه النظرة الصادق عفيفي بقوله :« من هذا نرى أن الأساليب لم تخرج كثيرا عما قاله ابن خلدون ، ولم تخرج عن كلمة عبدالقاهر الموجزة أن الأسلوب هو المذهب من النظم و الطريقة فيه.»[4]

ومن الفريق الثاني عبدالسلام المسدي وصلاح فضل وأحمد الشايب إذْ يرى هذا الأخيرأن حديث القدماء « عن الأسلوب كان مقتضبا غير قائم على أصول نفسية عميقة ولا منظَّمة.»[5]

وهذا لا يعيب تراثنا في شيء إذا ما عرفنا أن تعريفات الأسلوب عند المحدثين بلغت حد التناقض من كثرتها كما سَيُوجَز بعد هذا المطلب .

الأسلوب عند المحدثين :

المستعرض لتعريفات الأسلوب عند المحدثين من الغرب أومَنْ رددها من العرب لاعتبارهم علم الأسلوب حديث النشأة ، غربي المنزع كما رسخ في أذهان الكثير منهم ، يتبادر إلى ذهنه مقولة اسحاق الموصلي عندما طلب منه

1ـ بدوي ، أحمد أحمد – أسس النقد الأدبي عند العرب – دار نهضة مصر ، القاهرة – ط : 6 / 2004 – ص : 451

2ـ بكار، يوسف حسين – بناء القصيدة في النقد العربي القديم – دار الأندلس ، بيروت – ط : 2 / 1982 – ص : 148

3ـ أبو ديب ، كمال– جدلية الخفاء والتجلي – دار العلم للملايين ، بيروت – ط : 4 / 1995 – ص : 19

4ـ عفيفي ، محمد الصادق – النقد التطبيقي والموازنات – مكتبة الخانجي ، القاهرة – دط / 1978 – ص : 201

5ـ الشايب ، أحمد – الأسلوب – مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ط : 12 / 2003 – ص : 78

المعتصم أن يصف له النغم فقال:« إنَّ من الأشياء ما تحيط به المعرفة ولا تؤدِّيه الصِّفة.»[1] وكذلك الأسلوب فهو«السهل الممتنع ، نحسه ولا نعيه تماما فنعبر عنه تعبيرا دقيقا ، نعيشه ولا ندركه إدراكا تاما ، يكون في متناول أيدينا ولا نستطيع التعبير عنه تعبيرا جامعا مانعا ... فالأسلوب ذلك الشيء المستعصي رغم الحجم الضخم من الدراسات التي كتبت حوله ... ويلاحظ الباحث أن تعريف الأسلوب قد وصل إلى أكثر من ثمانين تعريفا بعضها تتقارب وبعضها الآخر يتدافع ويتخالف ويتناقض مع التعريفات الأخرى.»[2]

ولكثرة هذه التعريفات عند الغرب وحتى عند العرب ، سواء من استنسخ التعريفات الغربية أو من اجتهد في تقريبها من فهم الأوائل للأسلوب ؛ سأقتصر على الشائع منها والتي قسمها المسدي في كتابه الرائد " الأسلوبية والأسلوب " إلى ثلاث مصادرات كما سماها تقوم كأركاح – والتسمية دائما له – يستند عليها تعريف الأسلوب هي : المخاطِب والمخاطَب والخطاب وكل تعريف للأسلوب مرده الى نظرة استقرت في زاوية من هذه الزوايا الثلاثة وإلى هذا التقسيم ذهب فتح الله سليمان في كتابه " الأسلوبية "[3] و عدنان بن ذريل في " النص و الأسلوبية "[4]

*** الأسلوب من زاوية المخاطِب**

فإذا نظرنا إلى الأسلوب من زاوية المخاطِب (المنشئ) نجده يقوم على أن الأسلوب وصاحبه وجهان لعملة واحدة ، فالأسلوب يكشف مكنوناته ويعبر عن دخائله ، فالخطاب عن صاحبه يصدر، وعن انفعالاته يعبر، سواء أكان منشؤها ذاتيا أم خارجيا ؛ من بيئة ومحيط ومقام، لذا اعتد الغرب بمقولة بيفون buffon *: «الأسلوب هو الإنسان عينه.»[5] فغدت من أشهر تعريفات الأسلوب عندهم ، ومن هذه الفكرة صاغ أحمد الشائب أحد تعريفاته للأسلوب فقال :« كل أسلوب صورة خاصة بصاحبه تبين طريقة تفكيره وكيفية نظرته إلى الأشياء ، وتفسيره لها، وطبيعة انفعالاته ، فالذاتية هي أساس تكوين الأسلوب.»[6]

وقبل الاسترسال في تعريفات الأسلوب من هذه الزاوية، تستوقفنا الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [سورة محمد /30] ففي هذه الآية يشير الحق – سبحانه

---

1. الأصفهاني ، الراغب _ محاضرات الأدباء – دار صادر ، بيروت – ط :1 / 2004 – ج :1 – ص : 17

2- أبوالعدوس، يوسف – الأسلوبية الرؤية والتطبيق دار المسيرة عمان (الأردن)– ط : 1 / 2007 – ص : 07

3. سليمان، فتح الله أحمد– الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية – دارالآفاق العربية ، القاهرة – ط : 1 / 2008– ص : 11

4. بن ذريل، عدنان – النص والأسلوبية – منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق . ط : 1 / 2000 – ص : 43–44

* بيفون (1707 – 1788) أديب وعالم في الطبيعيات ، اهتم باللغة التي تكتب بها الآثار بعامة واعتبرها الكاشف الحقيقي عن شخصية صاحبها من مؤلفاته " مقالات في الأسلوب "

5- المسدي، عبدالسلام – الأسلوبية والأسلوب – دار الكتاب الجديد ، بيروت – ط :5 / 2006 – ص : 54

6. الشايب ، أحمد – الأسلوب – ص : 134

وتعالى – إلى أنَّ «المرء مخبوء تحت لسانه»[1] وكلامه ترجمان أفكاره ، فليس من العسير على الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يتعرف على رؤوس النفاق المدسوسة بين المجتمع الإسلامي في المدينة ؛ فألسنتهم تفضحهم ، وكثير من المفسرين جعلوا لحن القول هو الأسلوب المؤدَى به هذا القول ، يقول المفسر وهبة الزحيلي : « (لحن القول) أسلوبه ومعناه أوإمالته عن وجهه الصريح إلى التعريض والتورية ، فإذا تكلموا عندك عرضوا بما يعيب أمر المسلمين.» [2]

فالأسلوب أعلق بصاحبه وأدل عليه من سائر تصرفاته، وهو المجسد لتجربته الذاتية والناقل لها فهو« اعتدال وتوازن بين ذاتية التجربة ومقتضيات التواصل.»[3] كما ينقل المسدي عن ستاروبنسكي Starobinski** ، كما أن الأسلوب من هذه الزاوية هو فرادة خاصة بكل منشئ تماما كالبصمة التي لا يتطابق فيها اثنان البتة ، فما دامت اللغة تزخر بمعجم غني بالمفردات وتتيح تراكيب مختلفة لمجموعة اللسان الواحد، ومع التفاوت في القدرات العقلية لهذه المجموعة وتمايز تجاربها الشخصية وتباين جيناتها الوراثية ؛ لا بد وأن تختلف أساليبها وإن عبرت عن مدركٍ حسي أو متصورٍ ذهني واحد ، وهذه الفكرة جلَّاها المسدي بقوله :« بما أن كل دال له أكثر من مدلول ، وكل مدلول له أكثر من دال ؛ حسب انزياح الألفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال عن معانيها الوضعية ... لذا أي فكرة يمكن إبلاغها بأشكال وكيفيات متنوعة...ومنه يمكن التمييز بين أسلوب شخص وآخر.»[4]

*** الأسلوب من زاوية النص :**

لتعريف الأسلوب من هذه الزاوية ننطلق من تفريق دوسوسير في ثنائياته الشهيرة بين اللسان (كلغة معينة) – إذا استعرنا هذا المصطلح من محمد يونس علي ** – والكلام كأداء متجسد في الاستخدام ؛ هذا الاستخدام لم يفرق في البداية شارل بالي (مؤسس الأسلوبية التعبيرية) بينه وبين الكلام الفني المنحرف عن الأول وما مدى انحرافه عن (الدرجة صفر) *.

---

1. من كلام الإمام علي (كرّم الله وجهه) و سار مسار الحِكَم (نهج البلاغة – المكتبة العصرية ، بيروت – ط : 1 / 2001 ، ص : 425)

2. الزحيلي ، وهبة – التفسير المنير – دار الفكر ، دمشق – ط : 1 / 1991 – ج : 26 – ص : 122

3. المسدي ، عبد السلام – المرجع نفسه – ص : 58

** ستاروبنسكي (1920 – ...) طبيب ولد بجنيف عاصمة سويسرا شغف بالأدب والتنظير له ، له العديد من المؤلفات

4. المسدي ، عبد السلام – الأسلوبية والأسلوب – ص : 48–49

** استخدم هذا المصطلح في جميع كتبه وبالخصوص "مدخل الى اللسانيات " ، "مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب "

* مصطلح أطلقه رولان بارت في كتابه " الكتابة في الدرجة صفر" للدلالة على اللغة في استعمالهاالعادي.

وطبيعة هذا الانحراف ومميزاته هو ما عُرِّف به الأسلوب من هذه الزاوية على أنه « مجموع الطاقة الإيحائية في الخطاب الأدبي ، فالذي يميز الخطاب الأدبي عن العادي هو كثافة الإيحاء وتقلص التصريح ، ولعل ماهية الأسلوب تتحدد بنسيج الروابط بين الطاقتين التعبيريتين في الخطاب الأدبي : طاقة الإخبار وطاقة التضمين.»[1]

ويبرز هذا في رصيد معجمي في لغة معينة ركب تركيبا تسمح به قوانين النحو وسبل التصرف في الاستعمال فإذا بالأسلوب يتحدد بمعالم غير مشروكة بتطابق العمليتين أو ما سماه جاكبسونJackobson ** « إسقاط محورالاختيار على محورالتوزيع.»[2]

وغالب تعريفات العرب المحدثين للأسلوب كانت تنطلق من المعطى اللغوي المجسَّد في النص كتعريف علي الجارم ومصطفى أمين في كتابهما " البلاغة الواضحة " أو البدراوي زهران أوأحمد أمين أوغنيمي هلال أوريمون طحان أولطفي بديع ... الذين حشد تعريفاتهم نورالدين السد في كتابه " الأسلوبية وتحليل الخطاب"[3] ولم أنقل كل هذه التعريفات التي تصب في مصب واحد خشية التطويل .

*** الأسلوب من زاوية المخاطَب:**

أما من زاوية المتلقي فالأسلوب يراعَى فيه المخاطَب ، باعتبار الخطاب موجها إليه وبقصد التأثير عليه ؛ ومن ثم يعد تقييمه هو الحكم على العمل الفني جودة ورداءة فالمتلقي هو الغائب الحاضر في ذهن الكاتب ، والمراعى في قول القائل ، وهذا ما شغل حيزا في البلاغة اليونانية والعربية على حد سواء وهو ما عرف بمراعاة حال المخاطَب وكثيرا ما عيب على الشعراء عدم عنايتهم بهذا الجانب في مطالع قصائدهم خاصة.

من ذلك ما وقع لجرير مع الخليفة عبد الملك بن مروان الذي كان من متذوقي الشعر ونقاده ، حيث إنَّ جريرا أراد أن يفتخر بقرب نسبه من الخليفة وحظوته عنده فقال :

« **هذا اِبنُ عَمّي في دِمَشقَ خَليفَةً *** لَوشِئتُ ساقَكُمُ إِلَيَّ قَطينَا**[4]

فقال الخليفة : ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شرطيا ، أما والله لوقال : " ... لو شاء ساقكم إليّ قطينا " لفعلت ذاك بهم ، ولكنه قال " لو شئتُ " فجعلني شرطيا له.»[5]

---

1. عبد السلام المسدي – الأسلوبية والأسلوب – ص : 76

** عالم لغوي وناقد أدبي روسي (1896– 1982) من رواد المدرسة الشكلانية الروسية وصاحب نظرية الوظائف التواصلية للغة

2. عبد السلام المسدي – المرجع نفسه – ص : 109

3. السد ، نور الدين ـ الأسلوبية وتحليل الخطاب – دار هومة ، الجزائر – دط / 2010 – ج : 1 – ص : 162 – 168

4. جرير – ديوانه – دار صادر ، بيروت – دط / 1991 – ص : 477

5. المبرد – الكامل في الأدب – مؤسسة الرسالة ، بيروت – ط :5 / 2008 – ج : 3 – ص : 1075

فجعل في نسبة جرير الفعل (شاء) إلى نفسه حطاً من قدره ، وهناك قصة أخرى وقعت لنفس الشاعر مع نفس الخليفة عندما ألقى قصيدته التي مطلعها (**أتصحو أم فؤادك غير صاح ؟**) فزجره ومنعه من الاسترسال ، وكذلك حدث الموقف نفسه لذي الرُّمة حين ابتدر الخليفة بقصيدة مطلعها

ما بَالُ عَينِكَ مِنهَا المَاءُ يَنسَكِبُ * كَأنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيّةٍ سَرِبُ**[1]

و كانت عين الخليفة تدمع دائما لعلة ، فظن أنه يعرض به ، فزجره وأخرجه من مجلسه ، كل هذا يعده النقاد القدامى من "الهفوات النادرة" التي أفردها الصابئ بمؤلَّف يحمل نفس الاسم.

فـ«الأسلوب هو مقياس المفاجأة تبعا لردود الفعل ومعدن المفاجأة ومولدها ، هو اصطدام القارئ بتتابع جملة الموافقات بجملة المفارقات في نص الخطاب.»[2] فالمتلقي هو الذي يفض خاتم النص الذي يبقى معلقا دون أن يتنزل على يد متلقيه ، وهو الذي يجعل الروح تدب في أوصاله وإلا طُوي وزُكن في زاوية النسيان فـ « التلقي هو بمثابة انقداح شرارة الوجود للنص ولماهية الأسلوب الذي لا يبقى من تعريف له إلا كونه كائنا منشودا منذ لحظة النشأة إلى حيث يستهلك ، فقراءته دفن لصيرورته من حيث أنها تبشير بولادته.»[3]

وبقراءة فاحصة لهذه الأقوال وعرضها على أقوال بلاغيينا ونقادنا القدامى ، يُعلم أن معظم ما جاء به الدرس الأسلوبي الحديث هو عين ما قرره القدامى من قواعد في مجال الدرس الأسلوبي ، وباصطلاحات قد تكون أدق من المصطلحات الوافدة ، ولذا فإن الفروق الجوهرية بين النظرتين منتفية ، غير أن ما يميز الدرس الأسلوبي الحديث هو تعزيز مباحثه بما وصلت إليه بعض العلوم كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإحصاء ، وهو ما يمكن للبلاغة العربية أن تستفيد منه في تطوير مباحثها وعصرنتها.

وحين تلتفِت الدراسات العربية إلى هذا النقصِ وتستدرِك هذا الضعف بدراسة الأساليب العربية دراسة أسلوبية لغوية، دراسةً واعية متأنّية حينها تقف على كنوز من أفانين القول وأطايب البلاغة تحدّد معالم الأسلوب العربي البليغ الراقي وعندها تُستقصى جوانب النَّظم وتُستكمل النظرية ويوصل الأول بالآخر.

مصادر البحث ومراجعه

1) الأصفهاني ، الراغب _ **محاضرات الأدباء** – دار صادر ، بيروت – ط :1 / 2004

– **مفردات القرآن الكريم** – دار القلم ، دمشق – ط : 2 / 1997

2) الأعشى – **الديوان** – دار صادر ، بيروت – ط : 3 / 2003

1. ذو الرمة – ديوانه – دار صادر ، بيروت – ط : 1 – دت – ص : 59

2- جيرو، بيير . الأسلوبية (تر: منذر عياشي) . مركز الإنماء الحضارة ، حلب (سوريا) . ط : 2 / 1994 – ص : 124

3- المسدي ، عبد السلام – الأسلوبية والأسلوب – ص : 69

3) البحتري – **الديوان** – دار المعارف ، القاهرة – ط : 2 / 1977

4) بدوي ، أحمد أحمد – **أسس النقد الأدبي عند العرب** – دار نهضة مصر ، القاهرة – ط : 6 / 2004

5) بكار، يوسف حسين – **بناء القصيدة العربي القديم في النقد** – دار الأندلس ، بيروت – ط : 2 / 1982 –

6) الجاحظ _ **البيان والتبيين** – مكتبة الخانجي ، القاهرة – ط : 05 / 1985

7) جرير – **ديوانه** – دار صادر ، بيروت – دط / 1991

8) الجوهري – **الصحاح** – دار العلم للملايين ، بيروت – ط : 3 / 1984 – ج:01

9) جيرو، بيير . **الأسلوبية** (تر: منذر عياشي) . مركز الإنماء الحضارة ، (سوريا) ط : 2 / 1994

10) ابن خلدون – **المقدمة** – دار الكتب العلمية ، بيروت – ط : 1 / 2003

11) أبو ديب ، كمال– **جدلية الخفاء والتجلي** – دار العلم للملايين ، بيروت – ط : 4 / 1995

12) بن ذريل، عدنان – **النص والأسلوبية** – منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق . ط : 1 / 2000

13) ذو الرّمة – **ديوانه** – دار صادر ، بيروت – ط : 1 – دت

14) الزبيدي – **تاج العروس** – دار الفكر ، بيروت – دط / 1994

15) السد ، نور الدين . **الأسلوبية وتحليل الخطاب** – دار هومة ، الجزائر – دط / 2010

16) سليمان، فتح الله أحمد– **الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية** – دارالآفاق العربية ، القاهرة – ط : 1 / 2008

17) سيبويه – **الكتاب** – دار الجيل ، بيروت – ط : 01 – دت

18) الشايب ، أحمد – **الأسلوب** – مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة – ط : 12 / 2003

19) صمود ، حمادي – **التفكير البلاغي عند العرب** – دار الكتاب الجديد ، بيروت – ط :3 / 2010

20) ضيف ، شوقي – **البلاغة تطور وتاريخ** – دار المعارف ، القاهرة – ط : 8 / 1990

21) ابن طباطبا _ **عيار الشعر** – دار العلوم ، الرياض(السعودية)– ط : 1 / 1985

22) عبابنة ، سامي محمد – **التفكير الأسلوبي** – عالم الكتب الحديث ،عمان (الأردن) ط:1 /2007

23) أبوالعدوس، يوسف – **الأسلوبية الرؤية والتطبيق** – دار المسيرة ، عمان (الأردن)–ط : 1 / 2007

24) عفيفي ، محمد الصادق – **النقد التطبيقي والموازنات** – مكتبة الخانجي ، القاهرة – دط / 1978

25) القرطاجني ، حازم – **منهاج البلغاء وسراج الأدباء** (تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة) – دار الغرب الإسلامي ، بيروت – ط : 2 / 1981

26) المبارك ، مازن – **الموجز في تاريخ البلاغة** – دار الفكر ، دمشق – ط : 6 / 2006

27) المبرد – **الكامل في الأدب** – مؤسسة الرسالة ، بيروت – ط :5 / 2008

28) المسدي ، عبد السلام – **المصطلح النقدي** – مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله ، تونس – دط / 1994

// // – **الأسلوبية والأسلوب** – دار الكتاب الجديد ، بيروت – ط :5 / 2006

29) ابن منظور – **لسان العرب** – دار صادر ، بيروت – ط : 1 / 2000

30) أبونواس– **الديوان**– دار الكتاب العربي ، بيروت – دط – دت

31) الهاشمي ، أحمد– **جواهر البلاغة** – مكتبة المعارف ، بيروت – ط : 2 / 2004